أنباء وآراء

فضل العرب على الأفرنج

لا يخفى على من له إلمام بالتاريخ ، أن المسلمين من العرب لمّا فرغوا من الفتوح الشرقية صرفوا عنايتهم الى فتح الغرب ، حتى أغاروا على بلاد فرنسة تحت قيادة عبد الرحمن الناصري في عهد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين ، فدخلت الايالة الجنوبية كلها في حكمهم ، واستوطنوا تلك الايالة وعمّروا عدة من مدنها ، وخالطوا اهلها ، وتزوجوا فيهم ، واشتغلوا بزرع أراضيها والاتجار مع أهاليها ؛ فحدثت العلاقة الوثيقة الودية بين العرب والفرنسيين وظهر بينهم ما لدى العرب من الحضارة والآداب والمعارف والأخلاق والعادات ، ولاقوا الحكماء والأدباء والشعراء والأطباء من عصر الدولة الأموية الى عصر صلاح الدين الأيوبي . وكانت الأمة العربية إذ ذاك من الأمم المتمدنة وكانوا أكمل آدابًا وأوسع علومًا وأعلى حضارة من جيرانهم الافرنج . وكانت لهم المدارس والجامعات في قرطبة واشبيلية وغيرها ؛ وكان يدرّس فيها علم الفلسفة والهيأة والطب والكيمياء والتاريخ والأدب والشعر الى غير ذلك ... ولم يكن في أهل فرنسة الاّ جماعة من الأساقفة ممن يحفظ شعر « فرجيل » اللاتيني ، فرغب أهل فرنسة في تعلم علوم العرب ، واشتاقوا الى تحصيل آدابهم ، فأول من بادر الى طلب معارف العرب البابا « سلفستر الثاني » فقد سافر الى أرض الأندلس فبلغ اشبيلية ، وكانت مركزاً علمياً ، وكانت فيها مدرسة كبيرة جديرة بأن يقال لها « جامعة » فأقام البابا بتلك الجامعة ثلاث سنوات ، وقد كان تعلم مبادئ العلوم في اللغة اللاتينية ، فحاز حظاً وافراً من العلوم ، ثم رجع الى موطنه متنوراً بأنوار المعارف ، حتى حسبه الناس ساحراً ، وفتح باب علوم العرب لقومه ، وارتقى ببركة المعارف العربية متدرجاً الى المنصب الأجل : البابوية . وقيل إنه أول من أجرى الأرقام في بلاد

الأفرنج أخذاً من العرب ، فلما علمن أهل بلاده فضل هـــذا البابا وشرفه زادت رغبتهم فى اكتساب علوم العرب وارتحل كثير من تلامـذة الافرنج الى مدارس الأندلس ، ودخلوا فيها أفواجـاً ، وكانت الأندلس فى ذلك العصر فى أوج العلوم والآداب ثم رجعوا الى أوطانهم متنورين متبحرين فى العلوم والفنون . فأقاموا فى الأمصار الكبار ، وأفادوا الناس الفوائد العلمية تدريساً وتعليماً ، فانتشرت علوم العرب ولغتهم فى بلاد الافرنج ، حتى دخلت المصطلحات العلمية العربية فى مؤلفات علمائها وعمّت الكتابة بالعربية مبانى أهاليها وقصور ملوكها وأمرائها . قال سديليو : « إن كلمات اللغة العربية قد دخلت فى اللغة الفرنسية أكثر مما دخل فيها من اللغة اللاتينية» . وقال لامنس : «إن الافرنج قد أدخلوا فى لغتهم تسعمائة لفظ من اللغة العربية» .

ولم يكن أهل فرنسا عالمين بعلوم اليونانيين ولا قادرين على ترجمة كتب أرسطو وغيره لعدم معرفتهم بلغتهم اليونانية ، فأخذوا علومهم عن فلاسفة العرب ، ونقلوا الكتب اللاتينية المترجمة من الكتب العربية المترجمة من اليونانية والسريانية إلى لسانهم الفرنسي ، وأوجدوا التعبيرات الفلسفية والمنطقية وغيرها . وألّفوا فى علوم الأخلاق والسياســـة والاقتصاد ، وجعلوا لغتهم الفرنسية وصارت مارسيلية ، وطولون ، ونابولي ، ومانت بلير مراكز للفلسفة العربية فى فرنسة . ولما تعلم الافرنج من كتب الاسلام فلسفة أهل اليونان ، تهافتوا على تعلم أدب اليونان وحفظوا أشعارهم وتبحروا فيها ، فظهر فن التشخيص « المحاكاة » فيهم ، ثم وضعوا فيه مؤلفات كثيرة واشتهر منها مؤلفات أوريبيد ولا سيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها .

وما كان عند الأمـة الفرنسية تاريخ للوقائع الحادثة فى أرضهم ولا لدولتهم ولا للوكهم لأسمائهم وجلوسهم ووفاتهم وحروبهم ، فلما لاقوا المؤرخين من العرب وتبادلوا الأقوال بينهم تفطنوا لضرورة التاريخ ، وأقروا بالفوائد التاريخية ، فاهتدوا إلى وضع كتب التاريخ بهداية العرب وارشادهم وألف بعض الرهبان الساكنين طريقة القديس دنيس St Denis تاريخاً لدولة الافرنج فكان هذا أول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وحروبهم .

وفتحوا فى القرن الثالث عشر مدرسة للطب فى مدينة « مون بيلييه » وهي أقدم مدرسة

فى أوربا بعد مدرسة سالبرن التي بجوار نابولي ، وكانت أطباء العرب واليهود المستعربون يلقون فيها درس الطب ، وأسسوا فى طولون جمعية أدبية، ودعوها مدرسة العلم الفرح Collége de Gai Savoir وتسمى أكاديمية الأزهار وكان لفكتور هوغو Victor Hugo منها أوفر نصيب .

سافر هوغو مع أبيه الى الأندلس سراراً ، فتأثر بالشعراء الأندلسيين ، ولهذا يشبه كلامه كلام شعراء العرب ، كتب في مقدمة « الشرقيات » أن الناس كانوا ماهرين فى العلوم اليونانية لكنهم صاروا الآن ماهرين فى العلوم الشرقية Legacy of Islam وفى تأليفه « أوراق الخريف » ترى مماثلة عجيبة من الشعر العربي كتب إن سرور العائلة بالأولاد . فلا ريب ان الشاعرين الشهيرين فكتور هوغو الفرنسي والمعري العربي فى هذا الأمر على طرفي نقيض ، ولكنهما يتفقان فى تمجيد الله وغيره ، فمن شاء التفصيل فيطالع اللزوميات للمعري وأوراق الخريف لهوغو . وهكذا قرض قصيدة أخرى عنوانها « الشموس الغاربات » وصوّر فيها « غروب الشمس وظهور الشفق وتكاثف الغيوم على الأفق ، واستدل بنظره فى المخلوقات على وجود الخالق » وهذا كما قال الشاعر العربي المعري : —

أرى الخلق فى أمرين ماض ومقبل وظرفين ظرفي مدة ومكان
إذا ما سألنا عن مراد إلههما كفى عن بيان فى الإجابة كان

أو كما فى القرآن الكريم : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . ولهوغو قصيدة أخرى ، وهي « الدعاء للجميع » وهذه القصيدة مشتملة على القواعد البشرية والفلسفة الاجتماعية ، وفيها يخاطب الشاعر ربه ، ويطالب منها الدعاء ، ولعله قلد فى هذه الطريقة القرآن الكريم : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » . أو كما قال المعري فى اللزوميات :

« وأعط أباك النصف حياً وميتاً وفضل عليه من كرامتها الأما

أقلك خفاً إذ أقلتك مثقلا وأرضت الحوانين وأحتملت تمنا

وألقتك عن جهد وألقاك لذة وضعت وشحت مثل ما ضم أو شحا

ولو فتشنا كلام المعري أو ما ورد على شاكلته من الشعر العربي لوجدنا فيه كثيراً من المعاني الواردة في قصيدة « الدعاء للجميع » .

وفي الختام أسطر نبذاً عما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي والعلوم الأخرى ، فمعلوم أن العرب كانوا أمراء المعاني والبلاغة ورؤساء البيان والفصاحة ، ولغتهم كانت مشحونة بأنواع التشابيه والاستعارات . ولا ريب في أن الشعر العربي أكثر حلاوة ورقة ، ولكل من القوافي والأوزان ونغماتها الموسيقية تأثير خاص يعبرون عنه بالسحر الحلال ، فلما اختلط الافرنج بهم تأثروا بها غاية التأثر ، حتى حادوا عن تعلم أشعار اللاتين وأكبوا على تعلم أشعار العرب وأزجالهم ، وكان فقراؤهم كما قيل « ينشدون الأناشيد والمدائح العربية فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وإنما شوقاً منهم وهتافاً للألحان والأنغام والقوافي الرنانة » . فاستطابوا الشعر الافرنجي باستعمالهم القوافي التي لم تكن في أشعارهم ، وكان لهم فن من الشعر يسمونه « تنسون Tensou » فالقافية عند الفرنسيين كما قيل « هي اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة وما يتبعها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وپاج (Sage, Page) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي ، وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه « أسونانس Assonance » وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين ، مثل ساج Sage وآرم Arme ، واتفق العلماء على أن الافرنج قد أخذوا القوافي عن العرب ، وأخذوا عن العرب أيضاً في المنظوم أنواع المدح والغزل والهجو والهزل ، كما أخذوا عنهم في المنثور اللمح على نهج كليلة ودمنة ، وضروب أمثال لقمان ، وبقية الحكايات المؤلفة على ألسنة الحيوانات ، فمن ذلك « رومان ثعلب » « وأمثال ايزوب » و « رومان روز » وقيل « منها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم ، وجاروا العرب في

الفكاهات ، وألفوا حكايات وطرائف على قسوس القرى وخدم الكنائس ليضحكوا منهم الأمراء والفرسان الذين يسمونهم شيفالية » . هكذا تعلم الافرنج الفلسفة والطب والأرقام والتاريخ وفن التشخيص « المحاكاة » والقوافي ورقة الغزل وآداب النظم وتلحين الأغاني بفضل العرب وعلومهم ونقلوا منهم القصص المتداولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الأدب الفرنسي وإلى ذلك أشار الموسيو ريبه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنسية ؟

الله أباد — الهند

محمد أحمد الصديقي